المحاضرة الثالثة

الفرق والنوعية بين منهجيات هذه الممارسات الإنسانية

مناهج البحث في العلوم الإنسانية

تمهيد:

تعتمد العلوم الإنسانية في البحث على طرق أي إجراءات محددة تستخدم لتطوير المعرفة العلمية للظواهر البشرية. تقوم منهجية العلوم الإنسانية على دراسة هذه الإجراءات. تميز المعرفة العلمية بصرامة تفكيرها - الرياضي أو المنطقي - ودقة ملاحظاتها أثناء أعمالها التجريبية. كما تلعب المنهجية دورًا كبيرًا في العلوم (كما هو الحال في العلوم الإنسانية والاجتماعية كما في العلوم البحتة)، لأنها ثمرة تقليد طويل من البحث إذ تحدد الطريقة العلمية لدراسة الظواهر.

ومع ذلك، فإن هذه الأساليب القائمة على ترسيخ إيماننا بشيء ما، غالبًا ما تكون خاطئة أو غير كاملة أو معيبة. وقد يتبين أن الوسائل التي اعتمدناها للعثور على الجواب لم تكن كافية. وهكذا اعتقد اليونانيون القدماء أن البرق كان تعبيراً عن غضب زيوس؛ يخبرنا علماء الأرصاد الجوية اليوم أن هذه ظواهر كهربائية ولدت نتيجة الاصطدام بين السحب. أدانت الكنيسة الكاثوليكية غاليليو لأنه ادعى أن الأرض كروية وتدور حول الشمس؛ نحن نعلم اليوم أن غاليليو كان على حق، وأن الأرض لم تكن مسطحة أبدًا، وأنها لم تكن أبدًا مركز الكون. الناس الذين صدقوا هذه الأشياء كانوا مخطئين[1].

الموضوع

الأساليب العلمية: لماذا؟

إن أساليب المعتادة التي نستخدمها لبناء معتقداتنا غير مقنعة على الإطلاق ومن الممكن أن يكون التقليد صحيحا، لكنه قد يرتكز أيضا على سلسلة طويلة من الأخطاء والأوهام التي تتكرر من جيل إلى جيل. حتى الأشخاص ذوي الخبرة يمكن أن يرتكبوا أخطاء أو أن يكونوا مقيدين بتحيزاتهم أو قيمهم أو ذاتيتهم. كان الأشخاص الذين عارضوا غاليليو خبراء عظماء وأفضل العلماء في عصرهم؛ ومع ذلك فقد كانوا مخطئين. أما بالنسبة للتجارب الشخصية، فأنت تعلم جيدًا أنها دائمًا ما تكون محدودة وذاتية جدًا، وبالتالي لا يمكن الاعتماد عليها دائمًا. ليس كل ما تنقله الكتب أو وسائل الإعلام يتم إثباته بالضرورة، بل قد يتبين أنه غير صحيح تمامًا. ولذلك يجب علينا أن نكون حذرين من هذه المصادر المختلفة للمعرفة، حتى لو كانت في كثير من الأحيان عملية في الحياة اليومية. نحن نعتبر الكثير من الأشياء المشكوك فيها أو غير المحتملة صحيحة: هذه هي المشكلة التي يحاول المنهج العلمي حلها.

---

[1] https://www.google.com/search?q=les+méthodes+de+recherche+en+sciences+humaines

ومع ذلك، هناك عدد غير محدد من الأسئلة التي يمكن معالجتها بالمنهج العلمي. تتميز هذه الطريقة بحقيقة أن نتائجها قابلة للتكرار وموثوقة وغالبًا ما تكون غنية بالمعلومات وقوية جدًا. ولم تعد هناك حاجة إلى إثبات قوتها وفائدتها، فنحن جميعا نعرف أمثلة مقنعة عليها: تطور تكنولوجيا المعلومات، واكتشاف فيروس نقص المناعة البشرية الذي هو أصل مرض الإيدز، ودراسة الآثار السلبية للتلوث على بيئتنا، وما إلى ذلك. منذ أكثر من قرن من الزمان، اعتمد المنهج العلمي معظم الباحثين في العلوم الإنسانية، وهناك الآن اكتشافات كبيرة في علم النفس والتاريخ وعلم الاجتماع واللسانيات وسائر فروع العلوم الإنسانية.

ولدينا رؤى وأبحاث في التاريخ انتشرت في العالم وأثرت على الفكر الفلسفي والاجتماعي، ونسوغ مثال أيمانويل كانط الذي عالج موضوع: معنى التاريخ بسؤال هل للتاريخ معنى؟ وهل يقوم على المصادفة؟ .

ويجيب على ذلك: التاريخ ليس سوى مجموعة هائلة من الأفعال البشرية، وبالتالي فهو مسألة حتمية.

"يتم تحديد أفعال الإنسان تمامًا مثل أي حدث طبيعي آخر وفقًا لقوانين الطبيعة العالمية"[2]. استعمل كانط مثالين لمساعدتنا على فهم هذا النظام، المختبئ تحت اللاعقلانية السطحية. يبدو أن الوفيات والولادات والزواج تحدث بشكل غير منتظم، عن طريق المصادفة أو وفقا لإرادة الرجال المتقلبة. ومع ذلك، تظهر الجداول الإحصائية أنها تحدث في نهاية المطاف وفقا لقوانين طبيعية ثابتة. وبالمثل، فإن هطول الأمطار، على الرغم من عدم انتظامه، ينتهي به الأمر دائمًا إلى أن يكون متماثلًا إلى حد ما في منطقة معينة.

في الواقع، نلمس وعيا في التاريخ، وهو ما يسميه كانط تصميم الطبيعة، الذي يسعى إليه الرجال "دون وعي: "إن البشر، بشكل فردي، وحتى الشعوب بأكملها، لا يكاد يفكرون في حقيقة أنهم، في سعيهم لتحقيق أهدافهم الخاصة، كل حسب رغبته، يتبعون دون أن يعرفوا، مثل خط توجيه، تصميم الطبيعة، الذي هو في حد ذاته غير معروف عندهم، والعمل على تعزيز تحقيقه"[3].

حدد كانط الخط المشترك لهذا التاريخ، باستخدام تسعة فرضيات (نذكر منها أربعة).

الفرضية الاولى: جميع التصرفات الطبيعية للمخلوق مقدر لها أن تتطور يومًا ما بشكل كامل ووفقًا لغاية[4].لذا فإن العضو غير المستعمل هو تناقض في حد ذاته. تم تأكيد هذا الطرح، من وجهة نظر بيولوجية، عن طريق الطب (التشريح). لو كان هذا المبدأ خاطئًا، لما كنا نتعامل بعد الآن مع طبيعة متوافقة مع القوانين، بل مع طبيعة تعمل دون أي هدف.

الفرضية الثانية: إن ميول الإنسان الطبيعية للتفكير لا تتطور بشكل كامل إلا في النوع، وليس في الفرد. يعرّف كانط العقل بأنه قوة تسمح للمرء بتوسيع القواعد والتصاميم التي تحكم استخدام جميع قوى

---

[2] Emmanuel Kant. *Idée d'une histoire universelle*, Nathan, trad. J. Laffitte, Paris, 2005, Introduction, p.32
[3] Ibid.
[4] Ibid. p33

الفرد إلى ما هو أبعد من الغريزة الطبيعية[5].

الفرضية الثالثة: لا يستطيع الإنسان أن "يشارك في أي سعادة أو كمال آخر غير ما خلقه لنفسه، مستقلاً عن غريزته، وعقله[6] ".

ويمكننا أن نلاحظ أن الإنسان يولد "عاريًا" تقريبًا، دون أي ميزة طبيعية. ومن أجل سلامته، فهو لا يملك قرن الثور، ولا مخلب الأسد، ولا أنياب الكلب، بل يدان فقط، لذلك يحدث كل شيء كما لو أن الطبيعة أرادت أن يدين الإنسان بتقدمه لنفسه فقط، كما لو أن تصميم الطبيعة لم يكن لجعل الإنسان سعيدًا، بل يستحق السعادة.

الفرضية الرابعة: "إن الوسيلة التي تستخدمها الطبيعة لتحقيق تنمية جميع استعداداتها هي معاداتها في المجتمع[7]".

إن أساس هذا العداء، بحسب تعبير كانط الشهير، هو عدم قابلية البشر للاجتماع، وبعبارة أخرى، ميلهم إلى الدخول في المجتمع، المرتبط بمقاومة القيام بذلك، الأمر الذي يهدد باستمرار بتقسيم هذا المجتمع. ورغم ذلك يشعر الإنسان بمنفعة المجتمع (في هذه الحالة، يتطور بشكل أفضل) ولكن في الوقت نفسه، لديه هذه الشخصية المنعزلة المتمثلة في الرغبة في تنظيم كل شيء كما يشاء، ومقاومة الآخرين، وما إلى ذلك.

الخاتمة:

يعتبر البحث عن المناهج التي تمكننا من دراسة الظواهر الإنسانية والاجتماعية أمرا صعبا، نظرا لطبيعة الموضوع المدروس وهو الإنسان وكذلك المنهج الذي ينبغي أن يستعمل. إلا أن هذا المشكل لم يثني عزيمة المؤرخين إلى إرساء قواعد ومبادئ تجعل من قراءة التاريخ أمرا ممكنا نظرا للمناهج المتبعة في كتابة التاريخ

---

[5] Ibid. p34
[6] Ibid. p34
[7] Ibid. p36